المحاضرة الثانية: الأوضاع العامة بالمغرب العربي أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م

1- الأوضاع السياسية: إن ضعف دولة الموحدين وانقسامها جعلا المغرب الإسلامي يدخل مرحلة في غاية الخطورة تمثلت في المنازعات والتطاحن ورغبة كل دولة في السيطرة على المغرب الإسلامي الأمر الذي أدى إلى الاصطدام بعضها البعض. سعى بنو مرين إلى السيطرة على المغرب بيد أنهم اصطدموا بالحفصيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين، وقد عان المغرب الأوسط أي دولة بني عبد الواد(الزيانية) بحكم موقعها الوسطي من ذلك كثيرا فكانت تارة تصطدم بالحفصيين وتارة أخرى بالمرينيين مما جعل الحدود لا تعرف الاستقرار. ولقد لخص مولود قاسم نايت بلقاسم الوضع السياسي بقوله:«فتن داخلية فظيعة وتناحر بل انتحار، وتبعثر الدول طويفيات وسليطينات أشبه ما كانت بعصابات لا تكاد تحصى، كل عشيرة نصبت من نفسها دويلة، همها التطاحن مع جارتها التي لا تقل عنها سخفا واسفافا! انحلال وتحلل، وتفرق وتمزق، وتشتت وتفتت، واندثار طوال قرن كامل من بداية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن السادس عشر».

إلى جانب هذا لم تكن الدولة الزيانية تمتلك أسطول بحري حتى تستطيع التصدي للهجمات الاسبانية، كان لديها جيش بري مزود بأسلحة تقليدية، كما أنها لم تهتم بالتحصينات الضرورية مضادة.

2- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية: هذا الانقسام الداخلي صاحبه اضطراب اجتماعي وتراجع اقتصادي وانكماش ديمغرافي، وتراجع الحواضر وتحول قسم من السكان إلى حياة البداوة. كانت هناك هجرة قسرية كبيرة من المدن المحتلة من طرف الاسبان أو المهددة بخطر الاحتلال إلى المناطق الداخلية، مما أدى إلى تقلص سكان المدن وزادت نسبة البدو، بالرغم من استقبال المدن الساحلية على الخصوص وبعض المدن الداخلية عددا كبيرا من أهل الأندلس الفارين الذين عززوا نسبة سكان المدن. انساق المجتمع نحو العصيان والتمرد في وجه السلطة المتهاونة، وشيوع الخرافات بين أوساط السكان مما تسبب في ضعف المقاومة في بعض الأحيان.

تراجع الحركة التجارية والاقتصاد النقدي بعد سيطرة أوروبا على الملاحة البحرية واحتكارها للطرق التجارية. والكشوفات الجغرافية التي جلبت للأسبان والبرتغال الكثير من الثروة وفي هذا يقول عبد الله العروي ما نصه: «ففي الوقت الذي عرفت فيه إذن بلدان البحر المتوسط الغربية النهضة،

الاكتشافات العظمى، التوسع الاستعماري، دخلت البلدان المغربية بنوع من التلازم السلبي في نوع من العصور الوسطى نبضت في غضونها التجارة وتراجعت الزراعة وتبددت السلطة...».

3- الأوضاع الثقافية: لقد تأثرت الحياة الثقافية بالأوضاع السياسية الغير مستقرة والاقتصادية والاجتماعية المتدهورة بسبب الاحتلال الاسباني والبرتغالي، فتراجعت الحواضر العلمية وأغلقت المراكز التعليمية التي كانت مقراتها الحواضر والمدن التي احتلت وهجرها طلابها وعلمائها لعدم وجود الأمن والحماية، وفقدت تلك المراكز أهميتها، ولم تسلم من ذلك إلا المدن الداخلية التي احتفت ببعض أهميتها مثل تلمسان وقسنطينة. وتحولت الزوايا إلى إشعاع علمي ومركز استقطاب للفارين سواء من اضطهاد الحكام أو من قسوة وبطش الاسبان.

4- الأوضاع العسكرية: تؤكد المصادر والدراسات على أن الأسلحة التي كانت تستخدم في تلك الفترة تقليدية، لا تتعدى السيف والرمح. وبذلك نلاحظ تدني المستوى العسكري بالمقارنة مع الأسبان والبرتغال، حيث كانت طرق القتال تقليدية وظلت سائدة طوال القرن السادس عشر والمتمثلة في التلاحم رجل لرجل، استعمال الخنجر والسيف والرمح، كما أنهم لم يعرفوا بناء القلاع وكيفية محاصرتها. ويؤكد ذلك خير الدين بربروس في مذكراته حيث يقول: «إن هؤلاء الأعراب لا علم لهم بفن الحرب...وفوق كل ذلك لم يكونوا يعيرون النفس البشرية أي اعتبار...وفي الحقيقة كان بينهم شجعان يجيدون الفروسية، إلا أن طريقة ركوبهم الخيل كانت بدائية جدا؛ فضلا عن كونهم لا يملكون أسلحة جيدة، وحتى لو وجدت فهم لا يجيدون استعمالها، كما أنهم لم تكن لهم أسلحة نارية جيدة. والسبب الأول في انهزامهم يرجع إلى كونهم لا يعرفون إطلاقا فنون القتال بشكل جماعي». كان خير الدين بربروس نوعا ما مبالغا في وصف الوضع العسكري لكن في نفس الوقت قدم لنا واقعا بطبيعة الحال مقارنة بقدرة الأتراك وبسالتهم وبفنون القتال التي يكتسبها الاسبان. بالمقابل نجد أن الأسبان قد منيوا بهزائم نتيجة نقص المؤونة وإلى الهجمات المفاجئة التي كان يشنها السكان.

استنتاج: عرفت كل من الدولة المرينية والوطاسية بالمغرب الأقصى والدولة الحفصية بتونس، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط مرحلة من التفكك السياسي؛ إن هذه الأوضاع المتردية والفوضى السياسية العارمة كانت عاملا مشجعا للأطماع الصليبية، ونلمس هذا بكل جلاء فيما كتبه فرناندو دي زافرا الذي كان كاتبا للبلاط الاسباني ومكلفا بحراسة شواطئ إسبانيا وبمراقبة الأندلسيين المتوجهين إلى بلاد المغرب في أعقاب إجراءات الطرد: «إن بلاد المغرب بأكملها تجتاز حالة انهيار نفسي يظهر معها أن

الله قد أراد منحها لصاحبي الجلالة». يتضمن هذا القول حقيقتين: الأولى وصف مطابق للحقيقة ينم عن معرفة دقيقة بالوضع السياسي المتدهور مما يجعلنا نستنتج أن اسبانيا كانت تتابع عن كثب ما يجري في بلاد المغرب. والثانية تحريض صريح الاستيلاء على بلاد المغرب.